خزانة الادب الكبرى للبغدادى

خزانة الأدب

ولب لباب لسان العرب

وهو شرح على شواهد شرح الكافية للرضى

(صدر منها الجزء الاول)

وتكمل فى ثمانية أجزاء تظهر متتالية كل شهر جزء

الأدب العربى الصميم الآن فى متناول يدك فلا تبخل بضعة دريهمات زهيدة تنال بها كنزاً من كنوز اللغة وبحراً فائضاً من بحور الادب المرضى والموعظة الحسنة.

فى خزانة الادب علوم الادب الستة: اللغة والصرف والنحو، والمعانى والبيان والبديع. وأى شىء يحتاجه الانسان بعد هذا ليكون اديباً مثقفاً على اخص قواعد الثقافة العلمية.

صدر الجزء الاول من «خزانة الأدب» فاطلبه من جميع المكاتب المعروفة. التجارية الكبرى — الهلال — الانجليزية — S - M - C — زيدان العمومية — العرب — الفجالة المصرية — سعد زغلول — نهضة مصر — الاهرام — المؤيد — الخانجى — التأليف — الوفد بشارع الفلكى — هندية بالمناخ — المنار بزين العابدين

وتطلب جملة من دار العصور للطبع والنشر بالظاهر بمصر

الثمن ١٠ قروش — ٤٢٠ صحيفة قطع كبير

صححه وعلق عليه جماعة من أفاضل الادباء المعروفين أجزاؤها مذيلة بفهارس كاملة، ويشفع الجزء الثامن بفهرس كامل مبوب على أحدث الاساليب العلمية

والاجتماعية يفسح المجال للحروب الاهلية والمنازعات التى كانت سبباً فى سقوط الامبراطوريات الكبيرة والدول العظمى ، بل وفى فناء شعوب برمتها .

٤ ــ المذهبية الفردية تعصب للذات من شأنه أن تتحجر من حوله كل الصفات المرنة التى تجعل الانسان عضواً صالحاً من مجموع بشرى يضرب فى سبيل الارتقاء . فاذا فشت هذه النزعة فى افراد أمة أو افراد طائفة احدثت جموداً . وفى أية صورة من الصور ظهرت المذهبية الفردية فتحيزت حول فكرة فلسفية أو دينية أو اى منحى من مناحى الرقى أو التفكير الانسانى كان ذلك نذير زوالها وانحلالها و يكون من أثر هذه المذهبية ان تنقلب ، جشعاً اجتماعياً ، له آثاره السوآى فى حب الاستئثار بالثروة والنفوذ

٥ ــ والنتيجة

أن الثوب المذهبى اذا لابس اية صورة من صور الفكر أو المعتقد أو الميول أو النزعات . كان اكبر دليل على بدء طور من الانحلال تظهر نتائجه تدرجا وعلى مر الزمان .

تمهيد

الارتقاء رمز يسجد له الغرب كله . ومن ذلك الرمز تستمد كل المبادىء الاخرى قوة تستند اليها . فاذا قرأت للشيوعيين أو للاشتراكيين . أو اذا رجعت الى اقوال الفرديين الذين يقولون بوجوب تسود الفرد فى المجتمع . وجدت أن كل فريق إنما يبرر مذهبه ويؤيده مستنداً الى رمز الارتقاء . وكذلك الحال فى الفلسفة التأملية الصرفة . فان كل مذهب من مذاهبها إنما يرتكز على فكرة الارتقاء الانسانى ليتخذها دعامة يسند اليها ظهره اذا ماتناوحت من حوله رياح النقد ، وأخذت نزعات الفكر تنخر فى أساسه . ولن تجد الحال فى السياسة أو الصحافة الا قائمة على نفس هذه النزعة . فالارتقاء اذن هو ذلك الرمز الذى تستمد منه شتى المبادىء والفكرات ، بل والنظامات الاجتماعية ، قوة تبرر بها وجودها باعتبارها شيئاً ذا أثر واضح فى الحياة الانسانية . والصحافة ، على مابلغت فى العصر الحديث من قوة وتأثير ، وعلى مالها من هيبة فى بعض بقاع الأرض ، فانها انما تتخذ الدعوة الى الارتقاء سبباً تتعلق به ، ومبرراً يزيدها قوة ويدعم من أسسها بما لايبلغ اليه أى مبرر آخر .

ثم ارجع الى ماهو أتفه فى الحياة . بل إلى ماهو تافه بالفعل . خذ مثلا التمثيل المسرحى أو التمثيل السينائى ، أو الرقص ، فان هذه الفنون ، على الرغم من أنها من أتفه مظاهر المدنية واضعفها أثراً فى خلق الاتجاهات الجديدة . وعجزها عن ان تؤثر فى الحياة أثراً ظاهراً ، بل فضلا عن انها قد نزلت فى العهد الأخير الى درك الفنون الاسفل ، اذ أصبحت من الالهيات العامة . بعد ان ادعى مؤيدوها بانها مدارس تثقيف وارشاد ؛ فانك تجدها تتخذ من رمز الارتقاء حبلا تتعلق به ، عسى أن تمت اليه بسبب ، أو تنتسب اليه بنسب .

عد بعد ذلك الى الفنون العليا . خذ الشعر والموسيقى والتصوير والحفر ، تلك الاشياء التى أدت رسالة الفن كاملة وحملت أمانة الابتكار تلقح بها العصور عصراً بعد عصر . ودهراً بعد دهر ، فانها كذلك تسجد أمام رمز الارتقاء . وتخشع له . فكأن هذا الرمز جبار تنحنى أمامه هامات العلوم والفنون والاداب والنظامات الاجتماعية . وهو قائم يشرف على التاريخ الانسانى منذ أبعد عصوره ، يلوح للانسان — « بالعصر الذهبى » — ذلك العصر الذى تمثله أهل الاغريق وسعوا اليه ، ثم من بعدهم الرومان ثم العرب ، و تلاهم من بعد أهل هذه المدنية الحاضرة ؛ على خلاف فى القواعد والمقاصد اذ انقلبت الوسائل من مجرد تأمل الى عمل صرف ، وتغايرت الغايات فصارت تنافساً بعد إن كانت إخاء . كل هذا ورمز الارتقاء يلوح للانسانية بعصرها الذهبى . فكأنه الفانوس السحرى فى يد ديوجنيس ، وهو يبحث عن الانسانية عندما تسود فيها الرجولة ، فتكون فى أكمل مظاهرها ، وتكتمل فيه النظامات الانسانية اكتمالا هو كل مايقصد « بالعصر الذهبى »

وعندى انه اذا كان من اكبر مزايا الفن أن ينقل للفكر صورة كاملة دفعة واحدة ، فان رمز الارتقاء لا كل صورة فنية أبدعها العقل الانسانى — من غير أن تقدر المهارة اليدوية أو العقلية حتى الآن عن أن تعبر عنها فى الشعر أو الموسيقى أو التصوير أو الحفر ، وهى فى معتقدى الصور التى استحال اليها الفن استحالة حقيقية . اما التمثيل والرقص وماشابههما ، فمن أبعد الاشياء تعبيراً عن حقيقة الفن ، ومن أعجز مظاهر الابتكار الانسانى عن أن تؤدى معنى الفن الصحيح .

على أنى أخشى ان يكون فى قولى بان رمز الارتقاء هو أكمل صورة فنية أبدعها العقل الانسانى شيء من الغموض والابهام . غير أنى أعتقد أن هذا القول يحتاج إلى قليل من الشرح ليكمل فى الذهن معناه ، وتتحيز فى الفكر ماهيته . فانى أعتقد أن الصور الفنية إنما تقوم فى الذهن قبل أن تخرج إلى حيز الوجود الفعلى . فالذهن أو النفس الانسانية مبعث الفن ومباءة الصور الفنية وما نقصد بالذهن أو النفس إلا قوة التخيل مصروفة إلى شيء يسبق إلى حدسنا أنه من الممكن تحقيقه ، أو أن تحقيق شيء ما من طريقه مستطاع على الأقل . فسواء أكان الارتقاء أمراً واقعاً بالفعل كما يعتقد كثير من الفلاسفة وكما اعتقد كثير منهم فيما خلى من الزمان ، أم أنه مجرد وهم استولى على العقول ، وأن الارتقاء مفهوم أو معقول لا مدلول له كما يعتقد الآن لورد بلفور والأستف إنج والباحث أوستن فريمان ، وكما اعتقد بذلك نفر من أفذاذ أهل الرأي وجهابذة أهل النظر من قبل ، فان هذا لا يخرج الارتقاء عن أنه رمز فنى له الآن أكبر السلطان على عقول أهل الغرب ، يتذرعون اليه بشتى الوسائل و بمختلف الوسائط ، ما كان منها شر وما كان منها خير ، بغير تفريق ، ذلك لأن الكل مضحى به على مذبح ذلك الرمز المعبود ، بل ذلك الهيكل المقدس

***

فى القرون الوسطى لمع فى الفكر الانسانى نجم غير نجم الارتقاء أخذ الناس سناه . فان فكرة الخلاص الأخروى كانت قد استحوذت على العقول وفتكت بالأحلام ، وعلى الأخص تحت تأثير تلك الفكرات التى روجت لها الكنائس على مختلف نزعاتها . لذلك كان لرمز الارتقاء قداسته فى العصر الاغريقى ، وكان له تمجيده فى العصر الرومانى كما كان له تكأة اتكأ عليها فى العصر العربى . أما فى العصور الوسطى فان الناس قد نسوا « العصر الذهبى » وأكبوا على الآخرة ينهلون على يد الكنائس فى مناهلها ويرتشفون من سلسبيل خلودها ، فانصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة ، ومن العمل إلى الزهد ، ومن التأمل إلى الاستغفار ، ومن البحث وراء الحقيقة إلى التوبة خالصة لوجه الافلات من النار ، لا لوجه الله .

ولقد كان لهذا الاتجاه العقلى أثر طريح بأهل القرون الوسطى فى ما أزرق امضتهم فيها المشاق ، وساقتهم إلى مزالق ابتلعتهم من فوقها لجة الموت فى جوفها السحيق . فان الحروب

الصليبية المشؤومة ، وهى فى معتقدى من أكبر العوائق التى صدت المدنية عن أن تسير فى سبيل النشوء زماناً طويلا فى الشرق وفى الغرب ، لأثر من آثار هذه النزعة وثمرة من ثمرات هذا الاتجاه العقلى الغريب . ولا أكتم أن الفورة العربية التى اكتسحت العالم ابان الاسلام فيها من الحروب الصليبية شبه ولها بقواعدها آصرة . غير أن فورة العرب لم تلبث أن انقلبت مدنية مسلوخة عن بجمل المدنيات التى هدمها العرب وسقطوا على تراثها ؛ بل لم تلبث أن أصبحت امبراطورية استبدادية قائمة على أول قاعدة من قواعد الاسلام ، هى حصر السلطتين الدينية والزمانية فى يد أمير المؤمنين ، ظل الله فوق الأرض

أما الحروب الصليبية فلم تنتج مدنية . بل قوضت دعائم الحضارة ، ولم تنقلب مبراطورية لأنها هدمت امبراطوريات . فكانت فى أساسها ومبعثها صرخة من القلب عميقة، ظن أن صداها سوف يبلغ إلى عرش الله فوق الكروبيم وسيراف — فيفتح لهم حارس الجنان أبوابها فيدخلونها أفواجاً .

ولا شبهة مطلقاً فى ان ذلك العصر كان عصر انحطاط ، نسى الناس فيه ان فطرة البشرية فيها نزعة الى الارتقاء ، وان الطبيعة تدفعها الى النشوء والى التطور ، وأن مدارج النشوء والتطور لابد من أن تعدل من النظامات الانسانية على مقتضى الحاجات التى يشعر الانسان بأنه فى حاجة اليها . حتى انى لا أغالى اذا قلت بان الناس كادوا ينسون ان لهم بالطبيعة الحاقة بهم صلة وأن بينهم و بينها نسبا أدنى . فالارض مركز النظام الشمسى والانسان محور الكون . وما جعلت الارض فى المركز الا لان الله لغرض ما اختار ان يشرفها بابناء آدم المطرود أبوهم من الجنة . وان الجنة لهم متاع يرتدون اليه بعد حين .

زد الى ذلك معتقداً آخر فى أن القرن العاشر نهاية العالم وأنه الحد الزمانى الذى قدر لنظام العالم أن يبلغ اليه . فكان اقتراب الناس من سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد نذير بالدمار وحلول الكارثة الكبرى . والفلك يدور ويتعاقب الليل والنهار ، والسنون تمر تباعاً وسنة ١٠٠٠ تقترب والساعة فى عقبها سوف تأخذ الارض وأهلها عند بزوغ فجر اليوم الاول من القرن الحادى عشر . ويترك الناس مزارعهم ومتاجرهم

ويلقى الملوك تيجانهم الى الأرض ، ويترك الامهات أولادهم يموتون جدعا وعريا ويضيق الرهاب والقساوسة بمفشى الاعترافات ذرعا فيخرجون الى الاسواق وفى يدهم السياط الثقيلة يأخذون بها كل من ركع أو سجد على الأرض علامة على انه اذنب ، فيقوم السجود أو الركوع مقام الاعتراف ، ويقوم السوط مقام اللسان فى منح الغفران .

ثم تقترب الساعة فتهلع القلوب وينتحر صغار العقول وضعاف الاحلام ويظل الناس ليلة مستهل القرن الحادى عشر سكرى بذكر الآخرة ينتظرون الطامة الكبرى والكارثة العظمى . ويمر من الليل ثلثيه ثم ثلاثة ارباعه ثم ينبثق الفجر : ومن بعده يتنفس الصباح ، ثم تشرق الشمس ويمر بعض اليوم والكارثة لم تحل ، والطامة لم تنزل !

أمر عجيب ! ان الله قد اجلها لاجل آخر لسر لا يعلمه الا هو ! عذر تقوله الكنيسة ويقبله الناس . ولكن هذا كان آخر عهد الناس بالانصراف الى الخلاص الاخروى دون العمل من أجل الدنيا . وهنا يحل رمز الارتقاء من إسار الوهم ليكون معبود الغرب مرة أخرى .

هذا المعبود المقدس ، الذى حطم اهل الغرب من أجله كل القيود وفكوا كل الاغلال ، هو الذى من أجله صارع الفلاسفة ليحلوه أيضا من اسار المذهبية . وقد كادوا يفعلون . وما نقصد بهذا التمهيد المسهب الا أن نقول هذه الكلمات : كما ان اهل الغرب قد حطموا كل قائم فى وجه « الارتقاء » ليمهدوا له الطريق ، كذلك حطموا المذهبية والمذاهب ليكون الطريق امامهم ذللا ، وليكون « الارتقاء » حراً طليقاً ينصرف فى شتى المناحى غير مصدود ولا محتكم فيه عملا او فكراً .

* * *

١ — المذهبية الاعتقادية = دين

« المذهبية الاعتقادية تعصب لفكرة أو مبدإ او أسطورة تنتقل بالوارثة أو اللقاح جيلا بعد جيل . من غير أن يكون للعقل المستقل حكم فيها » .

يعتقد بعض الباحثين الآن أن الصراع بين الدين والعلم أمر قد فرغ منه وأن الدين والعلم تصالحا على ان يكون لكل منهما حيزه ، الاول فى عالم الذات ، والثانى فى عالم الموضوع — وكفى الله الناس القتال . ويعتقد فريق آخر أن

صراعاً لم يقع بعد بين الدين والعلم ، وان كل ما وقع لدى الحقيقة مناوشات أكبرها حادث غاليليو فى حدود القرون الوسطى ، وحادث داروين فى أواخر القرن التاسع عشر . ويعتقد اصحاب الرأى الاخير أن الصراع لن يتناول صورة بعينها من صور الدين ، او مذهباً من مذاهب الدين ، او نزعة معينة من منازعه ، وانما سيقوم حول فكرة وجود الله بالذات فكأنهم يختصرون الطريق . فبدلا من أن يقطعوا الشجرة فرعاً فرعاً ليتنهوا الى اصلها ، سوف يحملون معاولهم ويضعونها فى الجذع أو لا وأخيراً . ولاجرم أنه لا يضع الفأس فى أصل هذه الشجرة الا جبار قوي الأصلاب

لم تقم المناوشات لدى الحقيقة بين الدين وبين العلم اطلاقاً وبالذات . بل قامت بين صور خاصة من الدين وبين بعض حقائق وصل اليها العلم. بعض صور حددت الافكار بحدود ضيقة وصدت العقل الانسانى عن أن يساير الحقيقة فى طريقها المرسوم — فلما ان افلت العقل من يد الاعتقاد رمى هذه الصور بقذيفة ما زال صداها يتردد الى اليوم فى جنبات الفكر الانسانى .

وهنا لا تنسى رمز « الارتقاء » فان الانسان لم يثر على المعتقد الا مدفوعاً بعامل « الارتقاء » . اما هذا العامل القوى فله وجهان . الاول بلوغ الانسان منزلة استطاع عندها ان يصارع التقاليد الموروثة والاساطير المتناقلة باللفاح ، والثانى رغبته فى أن يصل من الرقى الى درجة تكون انسانيته اذا بلغها اكثر تحقيقاً وأثبت سنداً .

ذلك لان من طبيعة المعتقد أن يصبح مذهباً راسخ القوائم فى اعمق اغوار النفس الانسانية . مذهب يعدل كل ملابسات الحياة على مقتضى بضعة فكرات لم يحتكم فيها العقل يوماً ، بل رموز او اساطير حوطت بسياج القداسة لئلا يدخل العقل الى حظيرتها فيفسد من امرها بقدر ما تصور واضعوها أن بقاءها مصونة من غزوات العقل خير للانسانية . وأنى للقداسة أن تمت لهذه الاحكام وتلك الاساطير بسبب ما لم تكن مستمدة من عالم الغيب منقولة إلى عالم الشهادة على أجنحة ملك لا تراه ولن تراه ، وإما نازلة على قلب صفى من أصفياء الله ، لا دليل على صحة دعواه إلا دعواه بأن ما يدعى صحيح . لهذا ، ومن أجل أن تكون أحكام المذهبية الاعتقادية بالغة منتهى القسوة محوطة من العقل باسم الله الرحمن الرحيم ، استمدت كافة أحكامها وأوهامها وخطراتها

وأسرارها واعلانها ، وكل مافيها،من عالم لا يراه الانسان الا بعد الموت . فكأنها أشياء هبطت علينا من عالم اللانهاية لتأخذ بيدنا إلى ذلك العالم .

فمن تاب وأناب فالجنة موئله ؛ ومن عصى فالنار مثواه

ولعمرى أن هذه الشبكة المحبوكة الأطراف ، المنسوجة خيوطها من عالم الغيب والتى لانعرف مم تتركب خيوطها الا إذا انتقلنا إلى ذلك العالم ، والتى سيجت بسياج القداسة لئلا تدخل أحكام العقل حظيرتها فتفسدها وتقصم حلقاتها لشبكة بقدر ما فى خيوطها من الوهن والضعف فيها من قوة الالتئام قدر كبير. هى واهنة ضعيفة أمام العقل وأحكام الثقل . قوية إذا استمدت ألفتها من الوهم ومن الرغبة الصادقة فى الفوز بالدنيا وبالآخرة

لهذا كانت المذهبية الاعتقادية أقوى صنوف المذاهب فى النفس الانسانية أثرا وأبعدها غورا، وأقساها على العقل حكما ، وأمتنها للحرية غلا

ولست أقصد من القول بأن المذهبية الاعتقادية تساوى الدين الا أن الدين أظهر مظاهر المذهبية الاعتقادية أثرا فى الجماعات الانسانية . فان المذاهب الفلسفية قد تبلغ فى بعض الاحيان من الثبات فى النفس مبلغ الدين، فتكون بطورها ديناً تضعف فيه صفة الاستمرار ، وينضب من حوله معين القداسة على قدرها . وكذلك المذهبية العلمية قد تصبح لدى ثابت الاعتقاد شيئاً أشبه بالدين . وكذلك الحال إذا بحثت شتى المذاهب فى أية صورة ظهرت ، فانك ترى فيها من الدين شبه ولهابه آصرة . غير انك فضلا عن كل هذا تجد أن احط الجماعات البشرية المتمدينة انحلت من الاستمساك باى شكل من اشكال المذهبية ، فانها لن تخلو من مذهبية دينية . تلك المذهبية التى اتخذناها عنواناً على بقية الصور التى ينشئها المعتقد على مختلف ألوانه وعلى شتى مناحيه .

وهنا نتساءل هل من أثر لهذه المذهبية يصد الانسان عن الارتقاء ؟

يدعى أهل المذاهب الاعتقادية بأن ارتقاء الانسان . مشروط على الوقوف حيث تقف أحكام مذاهبهم . غير أنهم لايفطنون الى شىء له أكبر الأثر فى تحديد معقول الارتقاء . فان الارتقاء الذى يسعى له الانسان لدى الواقع دنيوى ، والرقى الذى ينشده أهل المذاهب أخروى صرف . هذا فى الدين . أما اذا كانت المذهبية قاصرة على

صورة من صور الفلسفة ، او تصور من تصورات العلم ، أو حل من حلول البحث الاجتماعي لمشكلة من مشاكل الحضارة ، فالفرق بين معقول الارتقاء فيهما يختلف اختلافاً كبيراً ، وان كان يتفق وما يذهب إليه أهل الدين فى ناحية ما. فان الارتقاء كما هو دنيوى، فمفهومه كذلك أنه حركة الى الأمام مسبوكة فى قالب ما أو مقودة بفكرة معينة ، أو مسوقة الى غاية موضوعة. فى حين أن المذهبية فى كل صورها نذير الهمود والسكون الدائم .لان المذهب ما دام انه مذهب، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانى الاستقرار والثبات لايحتمل مطلقاً أن تتبدل بعض أطرافه دون بعض أو تتغير بعض احكامه أو قواعده قيد انملة . فان من طبيعة المذاهب ان تكون فى مبدإ الأمر كفكرة بسيطة ومن حول هذه الفكرة تقوم مؤيداتها من الاسانيد النقلية والعقلية والعملية . اذن يكون المذهب عبارة عن كل مترابط الاجزاء مؤتلف النواحى ، فيكون مثله كمثل هرم قائم من فوق الأرض ولكنه يرتكز على قمته لا على قاعدته . وتجد فوق هذا ان تركيب احجاره من فوق القمة المرتكزة على الأرض قد تناسقت أثقالها وأبعادها وأحكم وضعها على أخص القواعد الرياضية وقواعد ارتكاز الاثقال ،حتى أن تخلخل القمة من فوق الأرض أو انحرافها مفض الى انهيار الهرم العظيم قطعاً متناثرة ، واجزاء متنافرة . لهذا تجد أن كل فكرة مهما كانت صبغتها اذا ما برزت لابسة الثوب المذهبى ، فذلك دليل على قرب انهيارها ونذير بان ساعتها قد دقت وان أوان زوالها قد آن .

على ان هنالك فرقا لايجب علينا اغفاله بين صور المذاهب اذ تكون فلسفة أو علماً أو أدبا ، وإذ تكون ديناً . فالدين على انه أقسى ضروب المذهبية أثراً فى النفس بل وأوهاها قوة امام العقل والنقد ، فانه أقواها على الاحتمال وأشدها ثباتاً على الاجيال ذلك لانه مهما استقوى عليها العقل من ناحية الحكم الاستقرائى أو الاستنتاج المنطقى وهما دعامتا الأسلوب العقلى ، فان من حول مذهبية الدين سياج القداسة يحوطها ويحميها . فان اشتركت مع بقية الصور المذهبية من حيث البناء الهرمى المرتكز على القمة لاعلى القاعدة ، فانها تمتاز بان من حولها سياج القداسة ترتكن إليه كلما اعوزتها الحاجة الى سنادة تحميها من احكام العقل أو تصرف عنها سوء ماتوجه إليها قوة النقد .

لهذا كانت المذهبية الاعتقادية من اقوى الحوائل التي تحول دون الارتقاء . واكبر دليل على هذا ان الصيحة التي صاحها الغرب في وجه الكنيسة وانتهت بفصل الدين عن الحكومة ، والصرخة الداوية التي يرن في آذاننا صداها اليوم ضد مذهبية الفلسفة ومذهبية العلم بل ومذهبية الاصلاح الاجتماعي نفسه ، وقد ظهرت جلية في مذهبية الشيوعيين والاشتراكيين ، وانتهت بتقرير مبدإ حرية الفكر ، لم يكن لها من سبب الا وقوف المذهبيات في وجه الارتقاء . بل ان هاتين الصيحتين ليستا الا تعبيراً عن شعور عميق خارج من أعمق اغوار النفس اذ تشرئب الى الارتقاء والى التقدم فيحول دونها حائل المذهبية في أية صورة من صورها ظهرت . وإني لشديد الاعتقاد باننا لن نكون يوماً أقرب الى انتهاج سبل الارتقاء الحقيقي منا اذا حطمنا المذهبيات بانواعها وتركنا الفكر حراً ليسلك بنا السبل التي مهدها من قبلنا عباد الارتقاء من أهل الحضارة الحديثة

***

المذهبية الجنسية — وطنية

«المذهبية الجنسية تعصب للدم يؤدي الى نفور من بقية سلالات النوع البشري» وقد يظهر هذا النفور في صور عديدة . فقد ينقلب كراهية شديدة أو حقداً أو حسداً ، وقد تسمى هذه الصور البشعة وطنية . والحقيقة أن دوافع الغريزة الحيوانية في الانسان تدفعه الى الجلاد والحروب ، فتظهر هذه الغريزة ملابسة لصورة من هذه الصور .

اذا انحصرت الوطنية في أنها حب « الوطن » والدفاع عنه ، كانت بذاتها الصفة الطبيعية التي تقع عليها في الحيوانات وعلى الاخص في الطيور . فان الحيوانات تدافع عن اوجارها والطيور تحمي عن اعشاشها في مواقع قد يكون فيها هلكها وفناؤها . غير أن هذه الصفة الطبيعية قد تطورت في عدة تطورات وفهمت على صيغ مختلفة . فحب الفتح والتدمير قد اعتبر في عصر من عصور التاريخ وطنية . والحض على الفوضى وقلب النظامات الاجتماعية قد عد عند بعض الفئات وطنية سامية المعاني . وما أشبه الوطنية او بالاحرى مفهوم الوطنية بمفهوم الواجب . كلاهما مرن يسع من المعاني بقدر ما في النفوس التي

سنوعها من غضائل و بقدر ما فى الرؤوس التى تحتويها من رجحان العقل . فالواجب قد يدعو اللص الى القتل تخليصا للص زميل وقع فى اسر الاعداء . وكذلك الوطنية قد يتذرع بها أناس فتتهم الظواهر وتكثت الشهوات قتل عقولهم ، ليحطموا ما شاؤوا أن يحطموا من مدنيات ويقوضوا ما شاؤوا ان يقوضوا من آثار ومعاهد ونظامات . لهذا كان من الصعب على الباحث أن يتكلم فى المذهبية الجنسية (الوطنية) من غير ان يحدد ما يقصد من معنى هذا الاصطلاح إلا عمى عليه وعلى قارئيه واختلطت مباحثه اختلاطاً مريباً وما نقصد فى الواقع بهذا الاصطلاح الا نزعة الكراهية التى تقوم فى نفوس أفراد شعب ما لشعب آخر من غير مبرر حقيقى أو تحت تأثير فكرات أو خيالات باطلة .

فان من شأن المذهبية الجنسية أن تُنكر محاسن الشعوب ولا تذكر الا سواتها ومن طبيعتها أن تصور فى الخيال صوراً كاذبة تكون مبعثاً للحروب المحطمة والكوارث المهدمة . ومن عناصرها الأولية أن تمثل الانتصار ولذة الانتصار فى الخيال فتقدم الشعوب على تحقيق ذلك فى الخارج . فهى فى قوامها الطبيعى خيال ينزع بالناس الى شهوات تدفعهم الى ابراز ما يخيل إليهم ليكون حقيقة ملموسة ، فى حين أن هذه الاشياء كلها من مصورات الوهم ومضاعفات الخيال .

والمذهبية الجنسية صفة موروثة عن الحالات البدائية الأولى . وكانت لدى الواقع من أخص الصفات التى أدت الى تكوين القبائل والشعوب . فان الحالة الحربية الاولى التى استمكنت من طبيعة أبناء آدم لحالة لا تجدها فى عالم الحيوان من شبه . فالحيوانات تقتل لتعيش . أما الانسان فكان يقتل ليقتل فى أغلب الاحيان . بل كان يقتل ليرضى فى نفسه نزعات حديثة لم تعرف فى عالم الحيوان . فالطاعية والانتقام وشهوة التسلط وامثال هذه الاشياء كلها نزعات ضعفت فى عالم الحيوان ضعفاً من الصعب ان نستدل معه على آثارها فى الحياة الحيوانية . غير أنها قويت مع الانسان وظهرت فيه مشبوبة فى أول أطوار تكونه الاجتماعى مذ كانت الجماعات الانسانية أسراً مفردة ثم قبائل ثم مدناً ثم شعوباً . وكان تقرير مبدإ الملك سبباً فى أن تنقلب الآية من ملكية فردية إلى ملكية ضمامية . فبعد أن كان ملك الفرد لا يتعدى بهيمة أو قوساً أو نشاباً أو كهفاً أو شجرة أو قطعة من الأرض أو ما ماثل ذلك ، امتدت الملكية إلى أن تكون حيازة لمدينة أو تحكما فى قبيلة

ومن ثم أصبحت ملكية لرقاب شعوب برمتها . ومن أجل أن يحتمى الملك الفرد المستبد وراء ظاهرة من ظواهر الوهم تقوم على حالة نفسية ما ، بث هؤلاء فى روع الشعوب أن الدفاع والهجوم إنما هما لخير الشعب ولعظمة الشعب . فدارت هذه الأوهام دورتها خلال عصور مديدة ولا تزال حتى اليوم قوية الأثر فى كل ما نرى من الانقلابات الفجائية الكبرى .

خرج الانسان من عهده البداتى الأول وفى يده آلات الهدم والتخريب . وبلغ أوج هذه المدنية ولا تزال هذه الآلات تسمو بنمو العقل وتتقدم بتقدم الاختراع ، ولا تزال الشعوب مستسلمة لفذة الوهم تزج بها فى غمرات حروب وثورات مانزل بها من شريعة العقل حكم ولا رضيت عنها المدنية ولا الحضارة يوماً من الأيام .

أما وقد بلغنا من البحث هذا المبلغ فانه يحق علينا أن نتساءل ما هو موقف هذه المذهبية الخبيثة من الارتقاء ؟ أما إذا كانت نزعة الصراع والجلاء بين القبائل البدائية تلك النزعة التى تحتمل أكبر مسؤولية فى خلق المذهبية الجنسية ، مذ كونت الأمم وانشأت المعاهد والنظامات المدنية فان هذا لا يمكن أن يكون مبرراً أبداً لتزكية هذه النزعة فى نفس الأفراد والجماعات وما دامت الأمم قد تكونت بالفعل ، وما دامت النظامات والمعاهد الاجتماعية قد بلغت حداً يمكن أن تتطور فيه من طريق التأثر بعضها ببعض فليس للانسانية على ما أرى من حاجة لأن تزكى نزعات افادتها فى عصورها البدائية الأولى . بل إن كل ما نرى من آثار هذه النزعة من مدنية العصر الحاضر ماهى إلا رجعى إلى نزعات فطرية لاحاجة لنا بها .

وهذه الحقيقة التى يمكننا أن نزكيها بكثير من الأمثال كافية فى الدلالة على أن هذه المذهبية تعوق خطى الارتقاء . ولا نغالى إذا قلنا بأنها من أكبر العقبات التى تصد الانسانية عن أن تمضى فى خطا النشوء الطبيعى . وليس بنا من حاجة لان نضرب على ذلك الأمثال أو نرجع إلى وقائع التاريخ ، ونحن لا نزال فى غمرة الحرب العظمى وآثارها السوآى .

وعندى أن أكبر دليل على أن الانسانية فى غير حاجة إلى الرجعى إلى تلك النزعات البدائية رقى العلوم والمعارف . فان أذهان الباحثين وأقلام الكتاب ، قد أحدثت

فى العالم ثورات كبرى من غير ان يراق فى سبيل ذلك دم ومن غير أن تحطم مدنيات أو تثل عروش ، ومن غير أن يقف انقلاب على يوما واحداً حائلا دون الارتقاء فاذا رشدت الانسانية حقيقة استطاعت أن تتنكب سيل الثورات المحطمة والثورات الفجائية الكبرى. وأن تتخذ من تاريخ العلم مثلا تسير عليه فى انقلاباتها الاجتماعية الكبرى على أنى لا أرى لهذا الأمر من سبيل الا بتحرير الأفكار تحريرا صحيحاً بحيث يفسح المجال لكل فكرة على أن يعتاد الناس احترام الأفكار وأن يتقبلوها بما يقتضى مبادىء الحرية من تسامح . فان هذا المجال هو مجال الارتقاء الحقيقى الذى لا يقوم فى سبيله عقبة ولا يصده عن السير فى طريقه المحتوم صاد

لهذا يجب أن نحارب المذهبية الجنسية وان نمقتها وأن نتنكب طريقها باعتبارها عملا حيوانياً ورثه الانسان عن سلالته الأولى . وان الرجعى اليه وتزكية هذه الرجعى عمل أبعد ما يكون عن الرشاد ، وأنه أبعث الأشياء على الانحلال والفساد

* * *

المذهبية الطائفية ـــ إنحلال

والمذهبية الطائفية تعصب لمجموع من أمة يتكون حول علاقة فكرية أو لحمة طبيعية أو ظرف اجتماعى : وهى فى أبسط مظاهرها انحلال فى الوحدة القومية والاجتماعية يفسح المجال للحروب الأهلية والمنازعات التى كانت سببا فى سقوط الامبراطوريات الكبيرة والدول العظمى ، بل وفى فناء شعوب برمتها

نفضل أن نبدأ البحث هنا بتحليل نلم فيه ببعض ضروب من المذهبية الطائفية ومظاهرها بحيث نتوخى الالمام بأينها أثرا لهذا نقول

أولا ـــ اذا انصرفت المذهبية الطائفية للجنس ـــ كان مظهرها أقلية

ثانيا ـــ واذا انصرفت ، ، للفكرة ـــ ، ، حزبا

ثالثا ـــ ، ، ، ، للعقيدة ـــ ، ، كنيسة

١ ـــ الأقليات

بمجرد وجود أقلية مندمجة فى أكثرية ، نذير بظهور المذهبية الطائفية . فان من طبيعة الاكثريات الميل الى الاستبداد والاستئثار بالمصالح الكبرى فى دولة ما من

الدول . ومن صفاتها احتقار الأقليات وعلى الاخص اذا شاعت فى الاقلية فكرة أن الاكثرية ترمى الى استصالها . فهنالك تنشأ فكرة اذلال الاكثرية من طريق الخداع والمكر بها . فيبقى جسم الامة مسموماً بسم الأقلية المترعة بفكرات لها فى بعض الاحيان مبرراتها . ولا جرم أنّ هذا من أكبر عوائق الارتقاء .

٢ — الاحزاب

من طبيعة الاحزاب التكون حول فكرة أصلها لفرد ثم يعتنقها مجموع فيكون حزبا.غير انه يجب بادئ ذى بدء أن تكون الفكرة الفردية كائنة فى الجو الاجتماعى ومن غير هذا لن تكون الفكرة الفردية حزباً . بل تظل فكرة ضالة تنتقل من ذهن الى ذهن من غير أن تؤلف من حولها مجموعاً نظامياً . وشأن الفكرات التى تتكون من حولها الاحزاب كشأن الشرائع . فان نجاح الشريعة أو سقوطها انما يرجع الى حاجة اليها يتشبع بها الجو الاجتماعى من قبل أن يخطها المشرع على الورق .

أما ضرر الأحزاب فيتفق أن يكون راجعاً الى تزويد الفكرة بمضاعفات يقصد بها المصالح الذاتية . فأن الفكرة التى يتكون من حولها حزب تظل عاملا ارتقائياً قويا مادامت منصرفة الى الصالح العام بعيدة عن أن تتأثر بالمصالح الفردية أو الذوات . وقد يتفق أن يحدث فى الفكرة الاساسية تعديلا لا شعوريا ينصرف فى ناحية تكون نتائجها ضررا لا نفعاً فان الجماعات لا تستطيع وهى فى غمرة التحول والنشوء ان تدرك شيئا ما سوف تجري اليها به خطا النشوء السائرة فيها . ولو كان هذا فى مستطاعها لعدلت عن كثير فى نظاماتها ولعدلت عن كثير من وجهاتها النظرية بمحض اختيارها . غير أن الجماعات لا تستطيع ذلك . وبهذا لا يمكن ان يتهكن انسان بمصير حزب من الاحزاب أو بمصير أمة تقودها احزاب مختلفة المبادىء . ذلك لان الحكم على الآثار الاجتماعية مرهون على نتائج لا يشعر بها الناس الا فى المستقبل البعيد . والحكم على الحاضر حكم غير ثابت على كل حال .

اما أظهر مظاهر الضرر التى تحدثها الاحزاب فالتنابذ الشخصى . وعلى هذا نرى أن الاحزاب نظام ضرورى . غير أنه قد ينصرف عن الخير العام تحت تأثير ظروف خاصة . وبهذا لا يكون النظام الحزبى عنصراً ضروريا للارتقاء الا بشرط واحد ،

هو أن يكون اساسه الغيرية والانصراف الى المصالح العامة وتفضيلها على المصالح الخاصة مهما عظم شأن هذه ومهما ضؤل شأن تلك .

٣ــ الكنائس

اما اذا انصرفت المذهبية الطائفيه الى العقيدة فانها تكون كنيسة ، أو طائفة دينية تتخذ لها نظاماً خاصاً ومراسيم خاصة . وهذا مايقصد في الحقيقة من معنى الكنيسة وعندى أن الآثار التى خلفتها لنا تواريخ الكنائس على مر العصور قد بلغت اقصى الضرر برقى الانسانية . بل كانت الحائل الاكبر دون الاخاء الانسانى . وكانت موئل الخلافات ومبعث الشرور الاجتماعية . ولا نكون اكثر اقتناعا بهذا منا إذا تذكرنا أن الانسان ليس له اختيار فى دينه اكثر مما له اختيار فى أن يوجد فى هذه الحياة . وعندى ان الانسان يولد محفوفا بثلاث ضرورات أولية ؟ الاولى انه يوجد والثانيه أنه يموت والثالثه أن يكون له دين . اما الضرورتان الاوليان فطبيعيتان . وأما الضرورة الثالثه فضرورة صناعيه فيها من اثر العادة اكثر مما فيها من اثر الطبيعه ولن يكون نظام هذا شأنه مفيدا للانسانيه أو مسايرا للارتقاء . بل هو نظام موروث يحدث اتجاها فكريا ما ، من شأنه أن يزيد من جفوات النظام الاجتماعى وان يكثر من فتوق الاتحاد الاخائى ذلك المثل الاعلى الذى كثيرا ماحاول الفلاسفه ان يرأبوا به صدوع الانسانية .

لهذا اقول بان الغاء نظام الكنائس نعمة كبرى للانسانية ، بل ان فى الغائه اكبر يد تسدى للنوع الانسانى

***

المذهبية الفردية ═ جمود

« المذهبية الفردية تعصب للذات من شأنه ان تتحجر من حوله كل الصفات المرنة التى تجعل الانسان عضواً صالحاً من مجموع بشرى يضرب فى الاسبيل الارتقاء . فاذا قست هذه النزعة فى افراد أمة او افراد طائفة احدثت جموداً . وفى اية صورة من الصور ظهرت المذهبية الفردية فتركز حول فكرة فلسفية أو دينية او اى منحى من مناحى الرقى أو التفكير الانسانى كان ذلك نذير زوالها وانحلالها . وقد يكون من

أثر هذه المذهبية ان تنقلب ، جشعاً اجتماعياً ، له آثاره السوأى فى حب الاستئثار بالثروة والنفوذ ،،

وهـذا التعريف نفسه لا يحتاج الي زيادة فى الشرح او اطناب فى البيان . اما المثل على هذه المذهبية الفردية وانها تحدث جمودا ، فظاهر فى بعض المذاهب الفلسفية التى لم تصلح لان تكون مدرسة ولم تصلح لان تكون مرشداً فى الحياة . والسبب فى هذا ذيوغ هذه النزعة فيها . وأصحاب الجمود الفلسفى كانوا يتقين اثير عوامل التقهقر فى بعض العصور ، وان كانوا من ناحية سلبية صرفة ، سنادة ارتكزت عليها خطا التطور الاجتماعى . فهى من حيث الايجاب عدم ، ومن حيث السلب نافعة بعض النفع ، بل هى ضرورية فى بعض الحالات .

والنتيجة

«ان الثوب المذهبي إذا لابس اية صورة من صور الفكر أو المعتقد أو الميول أو النزعات كان أكبر دليل على بدء طور من الانحلال تظهر نتائجه تدرجاً وعلى مر الزمان»

أما الارتقاء والمذهبية فعدوان لدودان . فلن يكون ارتقاء مع مذهبية ولن تكون مذهبية مع ارتقاء . اذن وجب علينا أن نضحى بأحدهما ليخلص لنا الآخر . ولاجرم أننا نضحى بالمذهبية لتخلص بالارتقاء ونجعله معبوداً نسجد له ونتجه اليه فى خطانا نحو الحضارة الصحيحة ؟

اسماعيل مظهر